

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كأما امتد عمر الانسان الحضاري ازدادت تبعاته ، واتسعت أمامه ميادين العمل والبناء ، وتشعبت حوله طرق التطوير والارتقاء ؛ فما كان يحمله على عاتقه - وهو في الالف الاول على سني حضارته - ليس شيئاً البتة ، اذا قيس بما يتراكم على عاتقه في النصف الاول من الالف الثاني ؛ من متطلبات الحياة ، ومرافق النماء ، ووسائل العيش ، ومخاطر الوجود .

فخمسةائة عام كفيلة بأن تقلب مفاهيم العقل واساليب المنطق . واسس العلم . فما هو ثابت في اولها يصبح لاغياً في آخرها ؛ وما هو بديهي في بدايتها ينقلب خرافياً في نهايتها ؛ ولا يعوزنا التدليل على ذلك فهو بيّن واضح لكل ذي عينين .

ولست أدري ، هل تكون نتائج الثورة الحضارية الجديدة ، التي تلف العالم من أقصاه الى أقصاه ، في صالح الانسانية ومن اجل رخائها، أم تكون هي الخطوات التي تنهي بها البشرية دورها ، والسطور الاخيرة التي تختتم بها مسرحيتها . فالدلائل

كلها تشير الى ان كل أربع وعشرين ساعة يضيفها الزمن الى عمر المدنية تزيد من انطلاقها في المغامرة ، وثرأهتها لتحقيق الفتوح ، وتضاعف في تعشيقها لفض المغاليق وتشوفها لحل المسهات .

ولكن .. هل انتهت ازمة الانسانية ؟

وهل وجد الانسان ضالته المنشودة .. « السعادة » ؟

هل تصر بنو آدم لتوفير الرخاء والمناه لبني آدم ، أم انهم تصأروا على اقتسام الغنائم ، واستهام الانصبه في الجهات الاربع عن هذه الدنيا ؟

لن ارتجل جواباً لهذا التساؤل ؟

ولكنني اذكر المتفائلين بالتاريخ نفسه .. تاريخ الحروب والايام الحالكه ، والدماء المراقه والمدن المدمره ، والشعوب المشرده ، والبلاد المتقسمة .

اذكرهم - ولعلمهم لا ينسون - بأن فترة السلام كانت دائماً ، فترة قصيرة من عمر الانسانية تتخذها مهلة للاستعداد لحرب جديدة؟ وان هذه الفترة لو امتدت طولاً وعرضاً ، لما كان امتدادها - ابدأ - كافياً لتعمير ما هدمته الحروب ، ولتشديد ما قوضته الاسلحة؟ وابرز دليل على ذلك ان الانسان المتحضر ، عانى في أقل من نصف قرن من الزمن ، حربين عالميتين ، قدم خلالها مئات الملايين من الاضاحي الغالية ، وحوّل فيها عامر الارض غامراً ، ودمر امهات المدن .

وفي هاتين الحربين بددت الانسانية المتمدينة ثروتها كلها - وتقدر بالبلايين - ثناً للنار والبارود ؛ ومن اجل آلات الموت والافناء ، وفيها ايضاً جعلت الانسانية عمالها ، وشبانها ، وشاباتها ، واشلاء قتلها ، جعلت كل ذلك حشواً للمدافع ، وطعاماً للهب .

وماذا كانت نتيجة الاحتراب الطويل ؟ - وقد عرضت بايجاز صورة أخيرة

منه - وهل وجد الانسان نفسه في منجى من العاصفة ؟ .

هذا هو امل الانسان .. الامل الذي يتضاءل وتتهارب اخيلته الحلوة ، امام نذر الحرب التي تحوّم في الاجواء العالمية ، وتهدد بالفناء كل ذي عرق نابض .
لقد قدح المفكرون زناد أدمغتهم ، وابتكروا نـخارج عدة للارزمة الخانقة ؛
ابتكروها في اثواب نظرية براقة ، يخيل للناظر اليها من بعيد ، انها هي آخر المطاف
فيما يتعلق بالتنازع الفكري ، وانها هي الجنة المرتقبة التي يحلم بها البائسون على
الارض ؛ وانها هي خشبة الخلاص التي ستنقذ الانسانية المشرفة على الغرق .

ابتكروا : الديموقراطية ، والملكية المقيدة ، والديكتاتورية ، والشيوعية
والرأسمالية ، والوجودية ، والبيروقراطية ، والبورجوازية ، الى اخر تلك المذاهب
السياسية الحديثة التي يضطرم حولها النقاش ، وتضطرب هي في الحياة ، وتحاول كل
منها ان تضم حول نفسها اكبر عدد ممكن من الانصار . واخيراً .. ظهرت الى
الوجود نظرية اخرى هي : القومية ، تقاطرت الشعوب على منهلها ، واستقت من
مبادئها ، وآمنت بفكرتها ، وتطرف فريق من الناس في فهمها وتطبيقها ، واعتدل
فريق آخر وسرت القومية سريان النار في الهشيم في البلاد العربية ، واصبحت عماد
النهضة ، ومعقد الامل ، وحمور العمل الايجابي والتفكير السياسي .

فاين يقف الاسلام في زحمة هذه المبادئ ووضوئها الكبرى ؟

بل اين تقف هذه المبادئ وتلك النظريات من الاسلام ؟

ان قارىء هذا الكتاب يجد الاجابة على هذه الاسئلة ؟ ويجد ان هذه الاجابة
لا تخرج عن السرد المنطقي لتفاعل هذه النظريات ، والبيان الصريح لامتدادها
حيناً ، وانكماشها حيناً آخر ، ووضوحها تارة ، وغموضها تارة اخرى ؛ ولا
نتخطى الايضاح المنهجي بقولنا ان هذه النظريات ليست الاحاولات جدية بالاعتبار
والتقدير ، قامت في اطراف الارض ، لاسعاد بني الانسان ، ولكنها للأسف لم تحقق
شيئاً من ذلك ! .

ان هذه المحاولات اشبه ما تكون بأدلة متاسكة النسيج، قوية التركيب ، فصيححة المنطق ، غير انها تساق في معرض الدفاع عن متهم محكوم عليه ؟

اننا نرى ان الانسانية تعاني امراضاً خطيرة ، قد يكون فيها فناؤها ، ولسنا نشك بأن المحاولات النظرية التي برزت خلال النهضة الانسانية الاخيرة ، لتفادي الكارثة ، أثرت تأثيراً موضعياً ، اشبه ما يكون « بالخمدر الطبي » الذي يؤجل الالام ولا يقضي عليها .

ومن خلال ابحاث هذا الكتاب يلاحظ القارى اننا قمنا بجولة في سوق النظريات – ونحن نحمل الاسلام في صميمنا – ورحنا نلاحظ ما يباينه ويحافيه ، ونظهر ما يواكبه ويجاريه ، ولم نخرج من هذه الجولة بنتيجة محددة ، ولا حملنا القارىء حملاً على رأي معين ، او اعتقاد محدد ، بل تركناه يزاملنا في الطريق ، ليتحقق في النهاية من ان : (الاسلام انطلاق لا جمود) وليكون له في هذه المباحث خير معوان على الهداية والاصابة وحسن التمييز .

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

مصطفى الرافعي